التسلسل العام للدروس (١٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[آل عمران: ١٧٥].

وَقَوْلِهِ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}[العنكبوت: ١٠].

وَقَوْلِهِ: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}[التوبة: ١٨].

لما ذكر المصنف – رحمه الله – في الباب السابق محبة الله عز وجل، ذكر بعده الخوف؛ لأن العبادة قائمة على المحبة والخوف، فلذلك أعقب المصنف – رحمه الله – باب الخوف في باب المحبة، والخوف هو تألم القلب واحتراقه من شيء مكروه يتوقعه الإنسان في المستقبل.

والخوف نقول: أنه عبادة، وهو درجات، أفضله وأعظمه الخشية؛ كما قال الله عز وجل في وصف العلماء: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[فاطر: ٢٨]؛ فأكمل الخوف هو الخشية من الله عز وجل.

والخوف يأتي على أنواع:

النوع الأول: الخوف التعبدي، أو خوف التأله، ويقال له: خوف السر، وهو: أن تعتقد أن هناك من ينفع ويضر، فتخافه وترجوه، فإن كان هذا الخوف مصروف لله عز وجل فهذا خوف توحيد، وإن كان مصروفًا لغير الله عز وجل كمن يخاف من الأموات أو القبور، أو الأوثان، أو الأصنام، أو الغائبين فإنا نقول: أن هذا خوف شركي.

وعلى ذلك نقول: أن الخوف منه ما هو توحيد، وهو الخوف من الله، بأن تعتقد أن الله عز وجل بيده كل شيء، فهو النافع الضار.

وخوف شركي، وهو: أن تعتقد أن هناك من المخلوقات من ينفع ويضر من دون الله عز وجل، فإذا صرفت إليهم الخوف فإنا نقول: أن هذا خوف شركي مخرج من الملة.

النوع الثاني: قد يكون هذا الخوف شرك أصغر، وهو: أن يخاف الإنسان من سبب ظاهري في الدنيا، ولكن هذا الخوف أدى به إلى أن يقع في أمر محرم، أو يترك واجبًا، فإنا نقول: أن هذا الخوف يعد من الخوف الشركي ولكنه لا يبلغ درجة الشرك الأكبر، وإنما هو شرك أصغر، فمن خاف من رجل أو أمير أو سلطان فتعدى بفعل محرم أو ترك واجبًا فإنا نقول: أن هذا يعد من جملة الأمور الشركية، ولكنه شرك أصغر.

النوع الثالث: الخوف الطبيعي، والخوف الطبيعي أو المباح أن يخاف ممن قام به سبب الخوف، كالخوف من السباع، وغير ذلك، فإنا نقول: أن هذا خوف طبيعي، ولكن بشرط ألا يعتقد أن هؤلاء ينفعون ويضرون من دون الله عز وجل وإنما هم تحت قدرة الله عز وجل، ومثل ذلك من خاف من سلطان ظالم، أو رجل يبطش، فخاف منه، فإنا نقول: أن هذا الخوف خوف طبيعي.

ويدل على ذلك: أن موسى عليه السلام كليم الله وصفه الله عز وجل بقوله: **{فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}**[القصص: ١٨]، فهذا نقول: أن هذا خوف طبيعي لا يُلام الإنسان عليه.

ولكن قد يكون هذا الخوف إنما هو خوف وهمي، كمن يخاف من مقابلة الناس، أو مقابلة الجمهور، أو يخاف من كل شيء، فإنا نقول: أن هذا ضعف في قلب الإنسان، وهو ما يسمى بالجبن، أو ما يسمى بالرُّهاب الاجتماعي، فهذا لا نقول: بأنه محرم إلا إذا ترتب على ذلك أنه ترك الواجبات أو فعل المحرمات فإنا نقول: أن هذا يصل إلى درجة الأمر المحرم.

والناس في مسائل الخوف والرجاء على أقسام، ولكن أيهما يقدم: الرجاء أو الخوف؟

اختلف العلماء أيهما أفضل يقدم الرجاء أو الخوف: على أقوال كثيرة:

القول الأول: منهم من قال: أنه يقدم الخوف على الرجاء، لأن الخوف يقطع الشهوة، فلذلك قدم، وعللوا بأن أكثر ما يقع في الإنسان من معاصي بسبب الشهوة.

القول الثاني: منهم من قال: يقدم الرجاء، لأن الرجاء يطمع الإنسان في رحمة الله عز وجل، فيقدم الرجاء على الخوف.

القول الثالث: ومنهم من يقول: بل هما كجناحي الطائر، لا يقدم أحدهما على الآخر، أي: بمعنى أن يكون الإنسان بين الرجاء والخوف كجناحي الطائر أيهما غلب هلك صاحبه.

القول الرابع: أنا نقول: أن الإنسان طبيب نفسه، فإن رأى أنه إذا قدم الخوف فإنه يتقرب إلى الله، فإنا نقول: أنه يقدم الخوف، وإن كان تقديمه للرجاء يقربه إلى الله أكثر فإنا نقول: أنه يقدم الرجاء، وكل إنسان أعرف بنفسه؛ **وهذا هو القول الأظهر**، أنا نقول: أن من الناس من يصلح له الخوف، فتعامله بالخوف، وتجعله يقدم الخوف، وهذا غالبًا فيمن تكثر شهواته، منهم من يقدم الرجاء؛ وهذا أفضل له، أي: يفتح له باب الرجاء وهو الطمع فيما عند الله عز وجل؛ هذا في الحياة الدنيا، أما عند الموت فإنا نقول: أن السنة أن الإنسان يقدم الرجاء مهما كان؛ كما ورد في الحديث: «**لا يموتن أحد إلا وهو يحسن الظن بربه**»، وذلك في تقديم الرجاء، وأن الله عز وجل واسع المغفرة، غافر الذنب وقابل التوب، فإذا الإنسان قدم الرجاء، فالله عز وجل عند حسن ظن عبده، فإذا ظن بربه أنه يغفر فالله غفور، وإذا ظن بربه أنه يعفو ويستر ويقبل فإن الله عز وجل من كرمه أنه يقبل من عبده ما أحسن الظن به.

وعلى ذلك نقول: أن كل إنسان أدرى بنفسه في مسألة الرجاء والخوف، فإن كان الرجاء يقربك إلى الله فاعمل بالرجاء، وإن كان الخوف يقربك إلى الله فاعمل بالخوف وهذا في الدنيا، أما عند الموت فإن السنة أن يقدم الإنسان الرجاء بالله عز وجل.

ضابط الخوف: هو كل ما يبعثك على فعل الطاعات وترك المعاصي فإنا نقول: أن هذا خوف محمود؛ وهذا هو الخوف الواجب، وإن كان يبعثك هذا الخوف على فعل السنن وترك الأمور المشتبهة؛ فإنا نقول: أن هذا خوف مسنون، ولكن الزيادة من الخوف قد يوصل الإنسان إلى اليأس من رحمة الله، أو القنوط من رحمة الله عز وجل، فلذلك المؤمن يخاف ولكنه إذا خاف من الله عز وجل لا يعني بذلك أنه يقنط من رحمته، بل يخاف من الله عز وجل ويرجو رحمته.

واستدل المصنف – رحمه الله – بأدلة من القرآن والسنة على إثبات الخوف وأن الخوف من الله عز وجل أمر محمود.

فاستدل بقوله تعالى: **{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[آل عمران: ١٧٥].

قوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}، أي: يخوف أتباعه، فأتباع الشيطان يخافون من الشيطان، فهو يعدهم الفقر، والعذاب، والأمراض، والأمور التي تهلكهم فيخافون منه، أي: من الشيطان.

قال بعض العلماء: معنى الآية: **{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}**، أي: يخوفكم بأوليائه، أي: يخوف المؤمنين بأوليائه، أي: بأولياء الشيطان، فيجعلهم يخافون من الكفار، من المنافقين، من الظالمين، من أولياء الشيطان.

قوله: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}: شرط، وهو دليل على أن الخوف شرط من شروط الإيمان.

ثم قال: وَقَوْلِهِ: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ}[التوبة: ١٨].

الشاهد قوله: {وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ}: والخشية نوع من أنواع الخوف، إلا أنها أكمل أنواع الخوف، لذلك وصف الله عز وجل العلماء بالخشية.

ولكن ما الفرق بين الخوف وبين الخشية؟

الجواب: **أولًا**: الخشية هي نوع من الخوف، ولكنه خوف مقرون بعلم، فالذي يخشى الله هو الذي يعرف الله حق المعرفة، فهو خوف مقرون بعلم.

ثانيًا: الخوف قد يكون سببه إنما هو ضعف الإنسان، أي: الذي يخاف هو ضعيف النفس، وليس لعظم المخوف منه، فلذلك قلنا: بأن الخشية أفضل وأكمل من الخوف، لذلك وصف الله عز وجل المؤمنين بالخشية.

ثم قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ}[العنكبوت: ١٠]، أي: إذا أوذي بسبب الله، أي: بسبب طاعته، سواء كانت هذه الطاعة من صلاة، أو صيام، أو دعوة، أو جهاد، أو أمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، {فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ}، أي: بسبب الله {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}.

قوله: {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ}: أي: عذاب الناس، خوفه من الناس، وما يفتن به كعذاب الله عز وجل، كما أنه يخاف من عذاب الله في الأصل انتقل خوفه إلى الخوف من فتنة الناس وعذاب الناس، فضل وزل؛ وهذا بلا شك أنه من الانتكاسة لبعض الناس.

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».**

قوله: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ»: اليقين: أي الإيمان، أي: من ضعف الإيمان وقلة الإيمان **«أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ»**، أي: أن تطلب رضا الناس بما يسخط الله سبحانه وتعالى.

قوله: «وأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ»: الله عز وجل يرزقك ثم بعد ذلك تنسب هذا الرزق للمخلوقين سواء كانوا ممن يقربون الإنسان من أب، أو أم، أو ممن يعمل الإنسان عندهم كمدير، أو أمير، أو غير ذلك، ولكن لا يعني ذلك أن يجحد الإنسان شكر الناس لا، **«من لم يشكر الناس لم يشكر الله»**، ولكن أن تعظم ذلك السبب وتعتقد أن هؤلاء هم الذين أعطوك من دون الله، أو أنك عظمت هذا السبب فإنا نقول: أن هذا بلا شك كفر بنعمة الله عز وجل، كما قال تعالى: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}[الواقعة: ٨٢]، وذلك في نسبة النعمة لغير الله عز وجل.

قوله: «وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ»، أي: أن تعتقد أن الله عز وجل هو الذي يعطي، وهو الذي يمنع، وهو الذي يرزق؛ لأن الله عز وجل قال: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}[الذاريات: ٢٢]، فرزق الله عز وجل إنما هو في السماء، والرزق المراد به: ليس هو فقط المأكل والمشرب، بل كل ما يقوم به البدن فهو رزق، وكذلك ما يقوم به الدين هو رزق، فالهدى، والإيمان، والصدق، والإخلاص، والتوبة؛ هذا رزق من الله عز وجل يؤتيه من يشاء، كذلك المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والدابة، والزوجة، والأولاد أيضًا هذا رزق من الله عز وجل.

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: وَعَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عنه وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.**

وهذا الحديث ورد أن عائشة – رضي الله عنها– كتبت إلى معاوية هذا الحديث، تبين فيه فضل الله عز وجل، وأن الإنسان ينبغي له؛ بل يجب عليه أن يلتمس رضا الله ولا ينظر إلى رضا الناس إذا كان يسخط الله عز وجل؛ وهذا من أعظم الفقه في الدين أن الإنسان يطلب رضا الله وإن سخط الناس، **"رضا الناس غاية لا تدرك"**.

قولها: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِي اللهُ عنه وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ»، لماذا؟

الجواب: لأن الله رضي عنه.

قولها: «وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ»: أي: طلب رضا الناس وذلك بفعل ما حرم الله عز وجل، أو بترك الواجبات **«سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»**، لماذا؟

الجواب: جزاء وفاقًا، لأنه ترك الواجبات وفعل المحرمات فعاقبه الله عز وجل بأن سخط عليه وأسخط عليه الناس.

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: بَابُ قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[المائدة: ٢٣].

التوكل على الله عز وجل من أجل الطاعات، بل ذكر بعض أهل العلم أن التوكل على الله عز وجل نصف الدين، وهو شرط الإيمان، لذلك قال تعالى: **{فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ}**. فهو شرط في الإيمان، وذكر بعض أهل العلم أنه نصف الدين من قوله تعالى: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[الفاتحة: ٥]، فقال: نصف الدين العبادة ونصفه توكل واستعانة بالله عز وجل.

والتوكل: هو الاعتماد على الله في جلب المطلوب، ودفع المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها.

والتوكل على أنواع:

النوع الأول: التوكل التعبدي، وهو: أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، فتتوكل عليه توكلًا مطلقًا، وتعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي ويمنع، وينفع ويضر سبحانه وتعالى.

فإذا صرفت هذا التوكل لله عز وجل فإنا نقول: أن هذا توكل شرعي، أو توكل توحيدي، وإن كان هذا التوكل لغير الله كمن يتوكل على القبور والأموات، أو الغائبين، أو الأولياء، أو الصالحين، فإنا نقول: أن هذا التوكل شرك بالله عز وجل، وهو شرك مخرج من الملة.

النوع الثاني: التوكل على الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على سلطان، أو أمير، أو مدير، أو أب، أو أم، أو غير ذلك في جلب المطلوب أو دفع المكروه، أو الرزق، أو غير ذلك، فإن كان هذا سبب من الأسباب الظاهرة فإنا نقول: أنه يجوز بشرط ألا يعظم ذلك السبب، فمن عظم السبب فإنا نقول: أنه قد يقع في الشرك الأكبر.

ولكن كيف أعرف أني معظم لهذا السبب؟

نضرب على ذلك مثالًا: شخص يعمل عند مدير، فهو لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، سألناه لماذا؟

قال: والله أنا أخشى أني إذا أمرت بالمعروف أو نهيت عن المنكر أني أفصل من الوظيفة، أو يقطع رزقي. فإنا نقول: أن هذا توكل وعظم ذلك المتوكل، فإنه وقع في الشرك الأصغر، لماذا؟

الجواب: نقول: لأن الرزق إنما هو بيد الله عز وجل، فأنت تعلم أن الرزاق في السماء كما قال تعالى: **{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}**[الذاريات: ٢٢].

وذكرنا على ذلك أمثلة فيما سبق في أول الكتاب.

النوع الثالث: التوكل الذي يكون بمعنى الوكالة، كمن يفوض شخصًا في بيع أو شراء، أو أنه ينظر في تجارته أو غير ذلك من الأمور، فإنا نقول: أن هذه وكالة أو توكل بمعنى الوكالة، وهذا أمر جائز، وقد وكل النبي ﷺ الصحابة في كثير من الأشياء، فوكل عليًا بن أبي طلب لقتال الكفار، ووكل خالد بن الوليد، ووكل ابن رواحة، وكذلك وكل ابن أم مكتوم على المدينة، ووكل أبا هريرة في قبض الصدقة، والزكاة، وغير ذلك، فهذا توكل بمعنى الوكالة، وهذا أمر جائز.

الناس في هذا الباب، أي: باب التوكل والتعبد- من قوله تعالى: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** - على أربعة أنواع:

النوع الأول: من يعبد الله ويتوكل عليه، وهؤلاء هم أكمل الناس، من يأتي بالعبادة كاملة، وكذلك يأتي بالتوكل كاملًا، وهؤلاء هم أهل **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**.

النوع الثاني: من لا يعبده ولا يتوكل عليه: كحال كثير من الملاحدة، والكفار الذين لا يعرفون الله.

النوع الثالث: من يعبد الله، أي: يقوم بالعبادة من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، ودعوة، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك، ولكنه يقصر في الجانب الآخر وهو جانب التوكل على الله عز وجل، يغفل هذا الجانب، ينساه، يقصر فيه؛ وهذا حال كثير من الناس، تجده يصلي ويصوم، ويقوم، ويذكر الله، ولكنه ينسى قضية التوكل على الله عز وجل، فهو حقق **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** ولكنه لم يحقق قوله تعالى: **{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**.

لذلك وصية النبي ﷺ لمعاذ، ماذا قال له؟

الجواب: قال له: «**يا معاذ، إني لأحبك**»، لماذا قدم بهذه المقدمة؟

الجواب: لأن هذه وصية محب، «**لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك**»، طلب العون، والتوكل على الله عز وجل، لذلك نقول: أن هذه القضية قضية عظيمة وهي خافية على بعض الناس، ولذلك لا بد أن يعتني بها المؤمن، ويتوكل على الله عز وجل، فإذا أراد الإنسان أن يحفظ القرآن، يبدأ بطلب العون من الله فيتوكل على الله في حفظ القرآن، وفي الصيام، وفي القيام، وفي الجهاد، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

مع أنه يبذل السبب إلا أنه يتوكل على الله، يعرف أن الله عز وجل إذا مده بعونه أنه لن ينقطع عنه، لذلك نشاهد كثير من الناس يبدأ بحفظ القرآن ولكنه لا يستمر، لماذا؟

الجواب: لأنه انقطع عنه حول الله عز وجل، فهو لم يتوكل على الله حق التوكل، لذلك يحفظ جزءًا من القرآن ثم ينقطع، يكون مستقيمًا ثم يضل، يبدأ في العلم ثم بعد ذلك ينقطع، يبدأ بالصيام ثم ينقطع؛ لأنه ينسى هذه القضية، وهي قضية التوكل على الله عز وجل.

تجد بعض الناس إذا أراد أن يُختَبر، إذا أراد أن يقرأ، إذا أراد أن يحفظ، يعظم قضية القدرات العقلية من الحفظ، والاعتناء بالكتابة، والاعتناء بالمسائل وحفظ المسائل وغير ذلك، ثم بعد ذلك يدخل إلى الاختبار وهو معتمد على حفظه، وفهمه، وقدراته وينسى أن الذي بيده كل شيء هو الله سبحانه وتعالى.

لذلك قد يصاب الإنسان بأمر لا تحمد عقباه، لماذا؟

الجواب: لأنه ترك التوكل على الله عز وجل، فيضل، ويزل؛ لأنه نسي التوكل على الله عز وجل، إنما توكل على مخلوق، على ضعيف، على قدراته، على حفظه، على فهمه، على مدرسه، على كتابه، على قلمه وغير ذلك.

لذلك ورد في الحديث من حديث عبد الله بن عُكيم: «**من اعتمد على شيء وكل عليه**»، أو «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»، ومن تعلق شيئًا: أي من علق قلبه على شيء وكله الله عز وجل إلى ذلك الشيء، فإن كان توكلك على الله ونعمة بالله عز وجل فالله عز وجل لن يخيب الرجاء، **هذا هو النوع الثالث**؛ وهو حال كثير منا، نصلي، ونصوم، ونطلب العلم، ولكن ننسى قضية التوكل، فنحن لا نستمد ولا نطلب من الله عز وجل أن يعيننا على الحفظ والفهم وغير ذلك.

النوع الرابع: من يتوكل على الله ولكنه لا يعبده، لا يصلي ولا يصوم، بل قد يكون من الكافرين؛ كحال كثير من أهل الدنيا، نشاهد كثير من أهل الدنيا، يركب البحار لطلب الدنيا، ويغوص في أعماق البحار، ويتاجر بكل أمواله ثم بعد ذلك إذا سألته يقول: أنا متوكل على الله. لا يصلي ولا يصوم ولكنه في قضية الدنيا يتوكل على الله عز وجل.

نقول: من رحمة الله ومن كرمه سبحانه وتعالى أن من توكل عليه فإن الله لن يخيب الرجاء.

لذلك قال الله عز وجل عن الكفار: **{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}**[العنكبوت: ٦٥]، فيستجيب الدعاء حتى من الكافرين.

كذلك في قضية التوكل على الله عز وجل فإن من توكل على الله عز وجل فإن من كرمه سبحانه وتعالى أنه يعطي من توكل عليه.

لذلك ينبغي لنا أن نعظم هذه المسألة، وهي: مسألة التوكل على الله عز وجل، وإن كان التوكل على الله عز وجل الناس فيه درجات.

قوله: بَابُ قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ}: وهذا الباب يصح أن يقال له: باب التوكل على الله عز وجل.

قوله: {إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ}: دليل على أن التوكل من الإيمان، بل هو شرط من شروط الإيمان أن تتوكل على الله عز وجل. 🕮 **قال المؤلف – رحمه الله –: وَقَوْلِهِ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**[الأنفال: ٢].

وَقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[الأنفال: ٦٤].

ثم بعد ذلك استدل المصنف – رحمه الله – بآيات:

منها: **قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}**.

الشاهد: قوله: {حَسْبُكَ اللَّهُ}، الحسب بمعنى: الكافي، أي: الذي يكفيك من الهم، والغم، ويكفيك من كل شر، هو الله سبحانه وتعالى.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، ما معنى الآية؟ هل معنى الآية يا أيها النبي حسبك الله والمؤمنين؟ أو أن المقصود بذلك يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك أيضًا حسبهم الله؟ أيهما: الأول أو الثاني؟

الجواب: نقول: بلا شك أن المراد بذلك الثاني، فالعطف هنا إنما هو العطف على الكاف، فالحسب هنا لله عز وجل، أي: يا أيها النبي حسبك الله وكذلك من آمن بالله فإن حسبهم الله، أي: أن الذي ينبغي أن يكون كافيك هو الله لا غيره، فتتوكل على الله عز وجل ولا تتوكل على غيره.

لذلك خطأ شيخ الإسلام ابن تيمية من قال: أن معنى الآية يا أيها النبي حسبك الله وأيضًا حسبك المؤمنين، أي: بمعنى أن المؤمنين يكفونك من كل شيء، وإن كان بعض العلماء ذهب إلى أن المعنى يحتمل؛ لأنه فسر الحسب بغير التوكل، إنما الحسب له معان غير التوكل وغير الكافي.

🕮 **قال المؤلف – رحمه الله –: «وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي اَلنَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا} اَلْآيَةَ»، رَوَاهُ اَلْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.**

قوله: {حَسْبُنَا اللَّهُ}، أي: كافينا الله.

قوله: {وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، أي: أن الذي يتوكل عليه المؤمن هو الله، فهو نعم هذا الأمر، أي: أنك تتوكل على الله عز وجل، وهذا المراد به الثناء والمدح، أن الإنسان يتوكل على الله عز وجل.

قوله: {حَسْبُنَا اللَّهُ}، أي: كافينا من كل شيء، يكفيك من ماذا؟

الجواب: يكفيك من الهم، ومن الغم، ومن الشر، ومن الأعداء إذا توكلت على الله عز وجل.

قوله: «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي اَلنَّارِ»: حين ألقي في النار، واجتمع عليه الناس وربطوه، ثم رموه بالمنجنيق وقذفوه في النار، فكان يقول: حسبنا الله. أي: هو الذي يكفيني، فكان الكفاية من الله عز وجل، فقال الله عز

وجل للنار: **{كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}**؛ لأنه هو الكافي سبحانه وتعالى، فهو سلب حرارة النار عن إبراهيم، و لم يتأثر إبراهيم من تلك النار؛ لأن الله عز وجل بيده كل شيء، فمن اعتقد أن الله هو النافع، الضار، بيده كل شيء سبحانه وتعالى، وتوكل عليه، وأنه هو الذي يجلب الرزق فإن الله عز وجل لن يخيب ظنه.

يشتهر في رواية: أن جبريل عرض على إبراهيم في الهواء قال: «**هل لك من حاجة؟ قال: أما إليك فلا**»، أي: بمعنى أني متوكل على الله، ولكن هذه الرواية المشتهرة لا تصح عن النبي ﷺ، بل هذه الرواية نقول: أنها موضوعة كما حكم بعض العلماء عليها.

قوله: وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا}: وذلك في غزوة حمراء الأسد، بعد غزوة أحد، فقال النبي ﷺ والصحابة: **{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}**.

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: بَابُ قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}**[الأعراف: ٩٩].

أراد المصنف – رحمه الله – بهذا الباب تقييد ما سبق، فلما ذكر الخوف وذكرالرجاء والمحبة أراد – رحمه الله – أن يبين في هذا الباب قيد لمسألة الخوف والرجاء، أن الإنسان إذا رجا أي طمع فيما عند الله عز وجل أنه لا يأمن من مكر الله، وإذا خاف لا يقنط من رحمة الله عز وجل، فهذا الباب كالقيد لما سبق.

وعلى ذلك نقول: أن المؤمن دائر بين الرجاء والخوف، ولكن إذا رجا لا يأمن مكر الله، وإذا خاف لا يقنط من رحمة الله، أو لا ييأس من رحمة الله عز وجل.

ولكن ما معنى الأمن من مكر الله؟

الجواب: الأمن من مكر الله هو: استدراج العبد بالنعم مع وقوعه في الذنوب والمعاصي، فيظن أن الله عز وجل حينما أعطاه هذه النعم دليل على أنه رضي عنه، فهذا نقول: أنه أمن من مكر الله عز وجل.

فالأمن من مكر الله هو: أن يستدرج العبد بالنعم، وذلك عند العصيان.

والقنوط من رحمة الله، أي: بمعنى أنه يظن أن الله لن يغفر له ذلك الذنب وتلك المعصية، فالمؤمن دائر بين الرجاء والخوف، ولكنه إذا رجا لا يأمن مكر الله عز وجل، والرجاء: الطمع فيما عند الله، وذلك بالنظر إلى رحمة الله، وسعة مغفرته سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ}** [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: **{غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ}** [غافر: ٣]، فالإنسان إذا نظر إلى ذلك فرح؛ ولكنه لا يأمن مكر الله، كما أنه إذا خاف من الله عز وجل ونظر إلى آية الوعيد وتذكر جهنم، لا يؤدي به ذلك إلى أنه يقنط من رحمة الله، فإن الله عز وجل يغفر الذنوب جميعًا، فالمؤمن دائر بين الرجاء والخوف.

لذلك جاء المصنف – رحمه الله – بهذا الباب ليضبط ما سبق من أبواب.

قال بعض السلف: (**من عبد الله بالحب فهو زنديق**)، أي: من عظم الحب و لم يخف من الله و لم يرجُ الله فإن هذا علامة الزندقة.

(**ومن عبد الله بالخوف فهو حروري**)، لأنه عظم الخوف، ونسي الرجاء.

(**ومن عبد الله عز وجل بالرجاء فهو مرجئ**)، لذلك المؤمن يعبد الله عز وجل بالحب والخوف والرجاء.

لذلك قال بعض العلماء: (**العبادة كالطائر جناحاه الخوف والرجاء، والرأس المحبة، فإذا قطع الرأس مات الطائر، وإذا كسر الجناح كان عرضة لكل كاسر أو صائد**).

فالمؤمن إذا عبد الله عز وجل فإنما عبادته قائمة على محبة الله، بل كل عبادة نقول: أنها قائمة على محبة الله، فنحن نصلي ونصوم، ونذكره سبحانه وتعالى لأنا نحبه سبحانه وتعالى، كما أنا أيضًا نخاف من ناره ونرجو جنته.

قال المصنف – رحمه الله –: بَابُ قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

وهذا دليل على أن من أمن من مكر الله، أي: ظن أن الله لا يعذبه مع وجود المعاصي والذنوب فإنه دليل على أنه من الخاسرين.

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: وَقَوْلِهِ: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}**[الحجر: ٥٦].

وهذا فيه وصف لمن قنط من رحمة الله و لم ينظر إلى سعة رحمة الله عز وجل، وهذا لا يقع إلا ممن لم ينظر إلى رحمة الله عز وجل، أي: أنه غلب سوء الظن بالله عز وجل.

لذلك نقول: أن من أسباب القنوط من رحمة الله عز وجل هو: سوء الظن بالله عز وجل.

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: «وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: اَلشِّرْكُ بِاَللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ».**

قوله: « **وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ** »، أي: قطع الرجاء من رحمة الله عز وجل، أي: أنه ييأس أن الله عز وجل لن يرحمه، لن يدخله الجنة، لن يغفر له ذلك الذنب.

وعلى ذلك أيهما أعظم: شخص فعل ذنب ثم بعد ذلك ترتب عليه أنه يئس أن الله يغفره، فهو وقع في ذنبين:

الذنب الأول: وجود المعصية.

الذنب الثاني: اليأس، ولكن أيهما أعظم؟

الجواب: اليأس أعظم، لماذا؟

الجواب: لأنه سوء ظن بالله عز وجل.

📖 **قال المؤلف – رحمه الله –: وَعَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ اَلْكَبَائِرِ اَلْإِشْرَاكُ بِاَللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اَللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ»، رَوَاهُ عَبْدُ اَلرَّزَّاقِ.**

قوله: «**وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اَللَّهُ**»: وذلك أن الإنسان إذا وقع منه ذنوب ومعاصي، ورأى أن الله عز وجل ستره وأن الله عز وجل أعطاه ورزقه يأمن أن الله لن يعذبه، نقول: أن هذا أمن من مكر الله، وهذا عُد من كبائر الذنوب.

قال: «**وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اَللَّهِ**»، ثم قال: «**وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ**»، كأن القنوط يختلف عن اليأس، وهذه مسألة اختلف العلماء فيها:

- فقيل: القنوط: هو أشد أنواع اليأس.
- وقيل: هنا يفرق بينهما:

فالقنوط من رحمة الله: أي أنه يستبعد أن الله عز وجل يرحمه: كالعاصي إذا وقع في الذنب، فيستبعد أن الله عز وجل يغفر له ذلك الذنب؛ فهذا نقول له: أن هذا يعد قنوط من رحمة الله.

أما قوله: «**وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اَللَّهِ**»: أي أنه يستبعد إزالة المكروه الذي وقع عليه، أو يستبعد أن تذهب هذه المصائب عنه، فإنا نقول: أن هذا يأس من روح الله عز وجل.

فنقول: المؤمن يجب عليه أنه يعبد الله عز وجل، وعبادته تكون بالمحبة، والخوف، والرجاء.

ولكنه إذا رجا لا يأمن من مكر الله، كما أنه إذا خاف فإن خوفه هذا لا يؤدي به إلى أنه ييأس من رحمة الله عز وجل، أو يقنط من رحمة الله عز وجل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.